٤٣ بَيْتُ الحَمْدُ

قَالَ رسُولُ الله ﷺ : «إذَا ماتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لملائكتِهِ : قَبضتُم وَلَدَ عبدِي؟ فَيَقُولُون : نَعَم

فيقولُ ربُّ العِزَّةِ : قبضتُم ثمرةَ فُؤادي؟

فَيقُولونَ : نَعم.

فَيقُولُ : ماذَا قَالَ عبْدِي ؟

فَيقولُونَ : حَمِدَكَ وَاسْتَرجَعَ.

فَيَقُولُ اللهُ : ابْنُوا لِعبْدِي بيْتاً في الجنةِ ، وسَمُّوه بيْتَ الحَمْدِ» (١) .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت]

إن الحق سبحانه يختبر مدى صدق الإنسان حين يُعلن الإيمان ، إنه سبحانه يختبرهم بالمحن والنِّعم ، و... أهل الصِّدْق فى الإيمان عن الكاذبين فى الإيمان.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٢١) ، وابن حبان (موارد الظمآن ـ ٧٢٦) من حديث أبى موسى رضى الله عنه ، قال الترمذى : «حديث حسن غريب» . وقد أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٤١٥) عنه أيضاً بلفظ «قال الله تعالى : يا ملك الموت ، قبضت ولد عبدى ؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال : نعم . قال : فما قال ؟ قال : حمدك واسترجع، قال : ابنوا له بيتاً فى الجنة ، وسموه بيت الحمد».

obeikan.com

فَمَنْ صبر على الاختبار والفتنة فقد ثبت صِدْقه ويقينه ، ومَنْ لم يصبر فقد دَلَّ بعمله هذا على أنه كان يعبد الله على حَرْف ، فإنْ أصابه خير اطمأنَّ به و رضى ، وإنْ أصابه شَرٌّ وفتنة انقلب على وجهه ونكصَ على عَقِبَيْه فخسر الدنيا والآخرة.

وذلك مصْداقاً لقوله تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج]

فالابتلاءات لها حكمة ومَغْزى ما دامت جاءت من ربٍّ حكيم ، ولم تأتِ من بشر ، فهى قَدَر جرى عليك ، ولم تجرّه أنت على نفسك ، فلا بُدَّ له من حكمة ، فالذى يعبد الله لا بُدَّ أنْ يعبده على أساس أنه إله حكيم يُبتلى بالخير ، ويُبتلَى بالشرِّ ، وما دام عَلِم هذا فسيظلّ إيمانه قوياً.

وهناك مَنْ يعبد الله على حَرْف ، والحَرْف هو طرف الشيء ، كمثل واحد يدخل على جماعة من الناس ، ويجد المكان ممتلئاً بالحاضرين فيجلس على الحَرْف ، والحرْف عادةً لا يكون فيه تمكُّن ، فالذى يجلس عليه لا يأخذ راحته فى الجلوس.

فكذلك الذى يعبد الله على حَرْف يكون غير مُتمكِّن من إيمانه ، فإذا أصابه خير يفرح ويسعد ، ويقول : هذا الإيمان جميل وحُلو وفيه بركة.

وإنْ حدث له ابتلاء أو فتنة تجده يسبُّ ويسخط ، فهذا عبادته غير مُتمكِّنة باليقين الذى يصدر عن الإنسان المؤمن بإله حكيم يجرى على عبده الخير له.

أما الآخر فيعبد الله على حَرْف ، فإنْ أتاه خير فرح واطمأن ، ومضى فى إيمانه ، وإنْ حدث له ابتلاء أو شرٌّ انقلب على وجهه ، فمَنْ لم يصبر وانقلب وضعه وتغيَّرتْ أحواله إلى الأسوأ يكون قد خسر الدنيا والآخرة ؛ لأن عبادته لم تَعُدْ تنفعه.

بل إنه يخسر خُسْراناً مبيناً ، وهو الخُسْران الذى لا يُعوَّض ، فالذى يخسر الدنيا قد يكسب الآخرة بالصبر والرضا ، ولكن الذى يخسر الدنيا والآخرة فهذا هو الخُسْران المبين الذى يُطوِّق صاحبه ، ولا يمكن تعويضه.

ولذلك يقول رسول الله ﷺ :«عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، إنْ أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له ، وإنْ أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له ، وليس هذا إلا للمؤمن» (١) .

فكُلُّ ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً ، وإمّا ثواباً ، وإما ارتقاءً فى الحياة ، ولذلك فهو خير ، ويعلم المؤمن أن كل مصيبة فى الدنيا إنما يجزيه الله عليها حُسْن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاءَ الله تعالى بنفسٍ راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه ، وهناك بعض المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء.

إذن: فالمؤمن كلُّ أمره خَيْر ، وإياك أن تنظر إلى مَنْ أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مُصَابٌ حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو مَنْ حُرِم من الثواب .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين : صبرٍ على ما يؤلم ، وشكرٍ على ما يُرضى ، وحين تجتمع هاتان الصفتان فى مؤمن يكون مكتمل الإيمان.

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) ، والدارمى فى سننه (٢/ ٣١٨) من حديث صهيب الرومى . وأخرج أحمد فى مسنده (٥/ ٢٤) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال ﷺ :«عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له شيئاً إلا كان خيراً له».

هنا يُقبل المؤمن على تحمُّل مشاقِّ الإيمان ؛ لأنه يثق فى أن الحق سبحانه لا يُضيع أجْرَ مؤمن ؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن ، ويشكر على النِّعَم.

إذن : عليك أن تدخل على الإيمان وأنت مؤمن بحكمة ربك فى كل ما يُجريه ، سواء كان نعيماً أو بُؤْساً ، فإنْ كان نعيماً فأنت سعيد به شاكر لربك عليه ، وإنْ كان بُؤْساً علمت أن لله حكمة فيه.

فصِدْق إيمانك متوقِّف على أن تكون حركة حياتك مناسبة لمقتضيات إيمانك ، فإنْ آمنت وأسلمتَ وجاءت حركة حياتك مناقضة لإعلان إسلامك ، نقول : أنت غير صادق ، ولكن إذا وُجدَتْ صفات الإيمان فى إنسان نقول له : لقد صدقْتَ فى إيمانك ؛ لأن حركة حياتك انسجمتْ مع واقعك الإيمانى ، وما أكثرَ الناس الذين يقولون ولا يفعلون وهم منسوبون إلى الإسلام بالكلام.

والحق سبحانه يقول:

﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]

هناك أُناسٌ كثيرون عندما يعطيهم الله نعمة يقولون «ربنا أكرمنا» وعندما يسلبهم النعمة يقولون «ربنا أهاننا».

فأنت مخطىء يا مَنْ اعتبرتَ النعمة إكراماً من الله ، وأنت مخطىء أيضاً يا مَنْ اعتبرتَ سَلْب النعمة إهانة من الله ، إن النعمة لا تكون إكْراماً من الله إلا إذا وفَّقكَ الله فى حُسْن التَّصرُّف فى هذه النعمة ، ولا تكون النعمة إهانة إلا إذا لم يوفقك الله فى أداء حَقِّ النعمة ، وحَقُّ النعمة فى كل حال يكون بشُكْر المنعم ، وعدم الانشغال بها عَمَّنْ رزقك إياها.

إذن : مجيء النعمة فى ذاتها ليس إلا اختباراً ، وكذلك إن ابتلاك الله بسلب النعمة ليس هذا للإهانة ، ولكنه للاختبار أيضاً.

فالخير بلاء ، كما أن الشر بلاء ، وحين تستخدم الخير فى خدمة منهج الله تعالى ولا تطغى به ، وحين تصبر على الشر ، ولا تتمرد على قَدَر الله ، فهذا كلُّه اختبار من الله عز وجل.

يقول الحق سبحانه :﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴿٣٥﴾﴾ {الأنبياء}

وكلامُ الله حَقٌّ ، يقول سبحانه فى قرآنه:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ {البقرة}

فتكون لنا البُشْرى ؛ لأننا صبرنا على كُلِّ هذه المنغِّصات : صبر على الخوف ، وصبر على الجوع ، وصبر على نقص الأموال ، وصبر على نقْص الأنفس ، وصبر على نقْض الثمرات.

فالمهم أن ينجح المؤمن فى كُلِّ هذه الابتلاءات حتى يواجه الحياة صَلْباً ، ويواجه الحياة قوياً ، ويعلم أن الحياة مَعْبَر ولا يشغله المعبر عن الغاية ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ {البقرة}

والمصيبة هى الأمر الذى ينال الإنسان منه المشقة والألم ، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقاً أنها على قَدْر إيلامها يكون الثواب عليها ، وأى أمر يصيب الإنسان إمَّا أنْ يكون له دَخْلٌ فيه ، وعند ذلك لا يصحّ أنْ يجزع ؛ لأنه هو الذى جاء بالأمر المؤلم لنفسه ، وإمّا أنْ تكون مصيبة لا دَخْل له بها وحدثتْ له من غيره مثلاً ، وعند ذلك عليه أنْ يبحث عن سببها : أعَدْلاً أم ظُلماً ؟

إنْ كانت عَدْلاً فهى قد جبرتْ الذنب ، وإن كانت ظُلْماً فسوف يقتصُّ الله له ممَّنْ ظلمه ، وعلى هذا فالمؤمن فى كِلْتَا الحالتين رابح.

إذن: فالمؤمن يستقبل كُلَّ مصيبة متوقعاً أنْ يأتى له منها خَيْر ، وعلى كل مؤمن أنْ يُقيِّم نفسه تقييماً حقيقياً.

هل لى على الله حق؟ أنا مملوك لله وليس لى حق عنده ، فما يُجريه علىَّ فهو يُجريه فى مُلكه هو .

ومَنْ لا يُعجبه ذلك فليتأبَّ على أىِّ مصيبة ، ويقول لها «لا تصيبينى» ولن تستطيع دَرْء أىِّ مصيبة ـ وما دُمْنا لا نستطيع أنْ نمنع وقوع المصائب والأحداث ، فلنقبلها ـ كمؤمنين ـ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد بنسبتنا إليه أنْ يُعزَّنا ويُكرمنا.

إنه يدعونا أن نقول : «إنا لله وإنا إليه راجعون».

إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله ونقبل ما حدث لنا ، فنحن مملوكون لله ، ونحن راجعون إليه ، وحتى إنْ كان فى مصائب الدنيا ظُلْم لنا وقع علينا من إنسان فسوف نأخذ ثوابَ مَا ظُلمنا فيه عند الرجوع إلى الله .

إذن : فنحن لله ابتداء بالملكية ، ونحن لله نهاية فى المرجع ، وهو سبحانه ملك القوسيْن ، الابتداء والانتهاء ؛ ولذلك علَّمنا رسول الله ﷺ عند أىِّ مصيبة تصيب الإنسان أنْ يسترجع ، أىْ أن يقول :«إنَّا لله وإنا إليه راجعون»

وزادنا أيضاً أن نقول :«اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها» إنك إذا ما قلتها عند أىِّ مصيبة تصيبك فلا بُدَّ أن تجد فيما يأتى بعدها خيراً منها ، وحتى إنْ نسى الإنسان أنْ يقول ذلك عند وقوع المصيبة ، ثم تذكَّرها وقالها فَلَهُ جزاؤها ، كأنه قالها ساعة المصيبة .

وهناك قصة عن أم سلمة رضى الله عنها ، حين مات أبو سلمة زوجها ـ وكان ملء السمع والبصر ـ وجزعتْ عليه أم سلمة ، فقيل لها قولى : ما علَّمنا رسول الله ﷺ ، قالت : وما علّمكم؟ قالوا : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجُرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها» فقالت ما قيل لها ، فإذا بها بعد انقضاء عِدَّتها يذهب إليها النبى خاطباً ، فقيل لها :« أوُجِد خير من أبى سلمة أم لم يوجد ؟ قالت : ما كنت لأتسامى ـ أى أتوقع ـ مثل هذا الموقف» (١).

إذنْ : كُلُّ مصيبة يتعرض لها الإنسان يجب أن يقول عندها :« إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرنى فى مصيبتى ، واخلف لى خيراً منها ».

وما هذا إلا لليقين فى قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة]

وهكذا تردّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ، فقد يحدث لى شىء أكرهه ، ولكنه فى حقيقة الأمر يكون لصالحى ، فهناك أحداث تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه ، فالإنسان لا يُربِّى إلا مَنْ يحب ، أما مَنْ لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بُحبِّ الخالق لنا ؟

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم»(٢).

ويقول ﷺ أيضاً :«أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢١) من حديث أم سلمة رضى الله عنها.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨) من حديث محمود بن لبيد ولفظه : «إن الله عز وجل إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن صبر فله الصبر ، ومن جزع فله الجزع» وأخرجه الترمذى (٢٣٩٦) ، وابن ماجة فى سننه (٤٠٣١) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، ولفظه :«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط».

الأمثل فالأمثل من الناس ، يُبتلَى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشى على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة »(١) .

فالمصائب تأتى للمؤمن لإفادته ، لأن المؤمن حين يُصاب إما أن يُكفِّر الله به عنه ذنباً ، وإما أن يرفعه درجة به.

يقول ﷺ :«ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها ، إلا رفعه الله بها درجة ، أو حط عنه بها خطيئة»(٢).

ولذلك يقال : إن المصاب ليس مَنْ أصيب فيما يحب ، ولكن المصاب هو مَنْ حُرِم الثواب.

فإن استقبل المؤمنُ المصيبةَ بالرضا ، وعلم أن الذى أجراها عليه حكيم ، ولا يجرى عليه إلا ما يعلم الخير وإنْ لم يعلمه ، فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف ، أما غير المؤمن فهو يتمرَّد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحرم من الثواب .

وفى حديث آخر يقول رسول الله ﷺ :«المصاب مَنْ حُرِم الثواب».

فالذى يُحْرم من ثواب الله هو المصاب فعلاً ، أما الإنسان الذى تحدث له مصيبة ويصبر عليها وينال على صبره ثواب الله ، فهذا ليس مصاباً.

والمصيبة قد تكون بسبب مرض أو وفاة شخص عزيز ، أو أى شىء يحدث لك دون تدخُّل من أحد ، فى هذه الحالة يكون الصبر عليها أسهل من

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٧٢) ، والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) ، وابن ماجة فى سننه (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، وقال :«حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٤٢) ومسلم فى صحيحه (٢٥٧٢) ، والترمذى فى سننه (٩٦٥) من حديث عائشة رضى الله عنها ، قال الترمذى :« حديث حسن صحيح».

الصبر على مصيبة حدثتْ بسبب غريم لك ، ضرب ابنك أو أصابك بمكروه ، أو تسبَّب فى إيقاع الضرر بك.

فى هذه الحالة يتأجَّج فى النفس سُعَار الانتقام ، ويكون الصبر صَعْباً ، ويحتاج إلى عزيمة قوية وإيمان راسخ.

والولد من النعم التى يُنعِم الله بها على الإنسان ، فكلُّ إنسان يرجو من الله أنْ يكونَ له أبناء ذكوراً وإناثاً ، فيشعر بالسرور والسعادة.

فالإنسان يحب الولَد ويسعى إليه ؛ لأنه ابْنُ دنياه ، وهو يعلم أنه ميت ميت ، فيحب أنْ يكونَ له امتداد فى الدنيا وذكر من بعده ، فالإنسان يتمسّح فى الدنيا حتى بعد موته ، وهو لا يدرى أنَّ ذِكْر الإنسان لا يأتى بعده ، بل ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح.

والإنسان تجده يحب البنين من الأولاد أكثر ؛ ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ (١) وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾ {آل عمران}

فنجد الحق سبحانه يضيف «البنين» إلى مجال الشهوات ، ويقصد بها الذُّكْران ، ولم يقُلْ البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعِزْوة كما يقولون ، ولا يأتى منهم العار ، وكان العرب يئدون البنات ويخافون العار ، والمحبوب لدى الرجل فى الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين ، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة ويُنادون بها ، سواء كان رجلاً أو امرأة إنْ لم يرزقه الله بولد ذكر ، فإنه ـ أو إنها ـ تريد ولداً ذكراً.

(١) الخيل المسوّمة : أى المرسلة للرعى أو المعلَّمة بعلامات [القاموس القويم ١/ ٣٣٧].

والمال والبنون هما الشغل الشاغل لكل الناس ، فكل واحد يريد أن يكون غنياً وعنده أولاد ، وتجده مشغولاً ومهموماً بسبب ذلك ، ولذلك يقول تعالى :﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف]

فالمال والبنون من زينة الحياة الدنيا وزخرفها ، أى ليسا من ضروريات الحياة ، فهو مجرد شكل وزخرف ؛ لأن المؤمن الراضى بما قُسِم له يعيش حياته سعيداً بدون مال ، وبدون أولاد ؛ لأن الإنسان قد يشقى بماله ، أو يشقى بولده ؛ لدرجة أنه يتمنى لو مات قبل أن يُرزق هذا المال أو هذا الولد.

والمال والبنون ليس كلاهما شراً للإنسان ، بل قد يكونان خيراً له ، فالمال إذا جمعتَه من حلال و أنفقتَهُ فى الخير يكون مَقْرُبة لك عند الله.

وكذلك الأولاد إذا ربَّيتَهُم تربية حسنة ونشَّأتَهم على طاعة الله والعمل الصالح فى المجتمع ، فهذا خير لك فى الدنيا والآخرة.

ولهذا المعنى قال رسول الله ﷺ :«إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولدٍ صالح يدعو له»(١).

فهذا الإنسان يُعطى عمره عُمْقاً وامتداداً ، حتى بعد موته ، فبدلاً من أن يعمل لمجرَد حياته وينتهى عمره مهما كانت رُقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ، ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته .

ولذلك طلب زكريا ـ عليه السلام ـ الولد ، فقال تعالى :﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٧٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٦٣١) ، والترمذى فى سننه (١٣٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، قال الترمذى :«هذا حديث حسن صحيح».

إنه هنا يطلب الولد ، ولكن لا بُدَّ لنا أنْ نلاحظَ ما يلى:

هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عزْوة ، أو ذكْراً ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، ولذلك قال فى آية أخرى : ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ {مريم}

والمراد بالميراث هنا : ميراث العلم والنبوة والمُلْك ، وحَمْل منهج الله إلى الناس ، فزكريا ـ عليه السلام ـ طلب الابن لتثبيت منهج الله فى الأرض ، لقد طلبه لمهام كبيرة .

إنه يضع كلَّ أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يا ربّ من فور أنْ تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يا رب تعلم صِدْق نيتى فى أننى أريد الغلام. لا لشىء من أمور كقرة العين ، والذِّكْر والعِزِّ وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثاً لى فى حَمْل منهجك فى الأرض .

وجاءته البُشْرى وهو يقف بين يدى الله مُصَلِّياً ، قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ {آل عمران}

لقد نادته الملائكة فى أورع لقاءاته مع ربه.

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ أيضاً دعا ربه فقال :﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ {الصافات}

فقد عَزَّ عليه أن عمره لا يتسع حتى يكون جندياً من جنود بَعْث منهج الله فى الأرض ، فقال : يا ربِّ نحن سنموت ، فأدعوك أنْ تقرَّ عينى بغلام يأتى بعدى ليقوم بهذا العمل ، فحين يتمنى رسل الله من الله خِلْقة ، إياكم أنْ تظنُّوا أنها مثلما نتمنى نحن ، فنحن نريدها ذكرى وعِزْوة ، أما النبى

فيريد من ابنه أن يكون نموذجاً إيمانياً ، يرثه فى حَمْل الفضائل وتطبيق منهج الله.

﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ {الصافات}

والحليم هو الذى لا يستفزه غضب ، ويتحمّل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاق نفسه ؛ لأنه يعلم أنه إنْ كان فى لجاج مع الغير ، عليه ألاّ يزيد فيه ؛ لأن مَنِ امتنع عن اللجاج فى الباطل بنى الله له بيتاً فى الجنة ، فالحليم يقدر على نفسه ؛ لأنه يعتقد أنه خالقه .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ (١) قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ {الصافات}

إن الحق سبحانه يعطينا نماذج للصبر على قضاء الله ، فالله لا يرفع قضاء فى الخلق إلا أنْ يرضى خَلْق الله بما أنزل الله ، أما الذى لا يقبل المصائب فهو مَنْ تستمر معه المصائب ، أما الذى يريد أن يرفع الله عنه القضاء فليقبل القضاء.

فها هو ذا سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ يتلقى الأمر بذَبح ابنه الوحيد ، ويأتيه هذا الأمر بشكل قد يراه غير المؤمن بقضاء الله شديدَ القسوة ، فقد كان على إبراهيم أنْ يذبَح ابنه بنفسه ، وهذا ارتقاء فى الابتلاء .

ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عُذْراً ليهرب من ابتلاء الله له ، ولم

(١) أى : كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه. وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم، بمعنى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل {قاله ابن كثير فى تفسيره ٤/ ١٤}

يَقُلْ : إنها مجرد رؤيا ، وليست وَحْياً ولكنها حَقٌّ ، وقد جاءه الأمر بأهوَنِ تكليف وهو الرؤيا ، وبأشقِّ تكليف وهو ذَبْح الابن .

ونرى عظمة النبوة فى استقبال أوامر الحق ، ويُلهمه الله أنْ يُشرِك ابنَه إسماعيل فى استقبال الثواب بالرضا بالقضاء.

لقد بلغ إسماعيل سِنَّ السعى فى مطالب الحياة مع أبيه حين جاء الأمر فى المنام لإبراهيم بأن يذبح ابنه ، وامتلأ قلب إسماعيل بالرضا بقضاء الله ، ولم ينشغل بالحقد على أبيه ، ولم يقاوم ، ولم يدخل فى معركة ، بل قال : ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات]

لقد أخذ الاثنان أمر الله بقبول ورضا ؛ لذلك يقول الحق عنهما معاً:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ (١) لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات]

لقد اشترك الاثنان فى قبول قضاء الله ، وأسلم كُلٌّ منهما للآمر ، أسلم إبراهيمُ كفاعل ، وأسلم إسماعيل كمنفعل ، وعَلِم الله صِدْقهما فى استقبال أمر الله.

وهذا الابتلاء جاء إبراهيم فى آخر حياته ، فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه ، إنه ابتلاء شديد قاسٍ ، لكن إبراهيم يعلم أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لا يطلب من خَلْقه إلا أنْ يستسلموا لقضائه.

ولذلك ، إذا رأيتَ إنساناً طال عليه قضاء ربه فى أىِّ شىء ، فى مرض ، فى مصيبة ، فى مال ، أو غير ذلك ، فاعلم أنه لم يرْضَ بما وقع

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض. وقوله ﴿تَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾ [الصافات]. أى : ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض .[القاموس القويم ١/ ١٠١].

له ، ولو أنه رَضِى لانتهى القضاء ، فالقضاء لا يُرفع حتى يُرضى به ، ولايستطيع أحد أن يلوى يد خالقه ، إذن : فالناس هم الذين يُطيلون أَمَدَ القضاء و البلاء على أنفسهم.

إن طريق الخلاص من أى نائبة من النوائب أنْ يرضى المؤمن بها ، فتنتهى ومَنْ تحدث له مصيبة بأنْ يموت ولد له ، ويظل فاتحاً لباب الحزن فى البيت ، وتبكى الأم كلما رأتْ مَنْ فى مثل سِنِّه فسيظل باب الحزن مفتوحاً ، وإنْ أرادوا أن يزيل الله عنهما هذا الابتلاء فليقفلا باب الحزن بالرضا.

وليعلم كل مؤمن أن مَا أُخِذ منه هو مُعوَّض عنه بأجر خير منه ، والمأخوذ الذى قبضه الله إليه وتوفّاه مُعوّض بجزاء خير مما يترك فى الدنيا.

ولذلك يُقال : المصاب ليس مَنْ وقعتْ عليه مصيبة وفارقه الأحباب ، بل المصاب مَنْ حُرِم الثواب ، فكأنه باع نكبته بثمن بَخْس.

قصة إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام تُعلِّمك أيها المسلم أنك إذا ما جاء لك قضاء من الله ، إياك أنْ تجزع ، إياك أنْ تسخط ، إياك أنْ تغضب ، إياك أنْ تتمرد ، بل احمد الله سبحانه ، واسترجع أى : قُلْ : إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ولذلك نقول فى الدعاء: أحمدك على كل قضائك وجميع قدرك ، حَمْد الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك.

أى : لك حكمة يا ربِّ فيما أجريتَ علىَّ من أحداث ، ولكنى لا أراها.

فإنْ أردتَ رَفْع القضاء ، فارْض به أولاً ، وإذا لم يُرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضا من نفسك لم يكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضجراً .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يجبره أحد ، فالقضاء نافذ نافذ ، رضيتَ به أم لم تَرْضَ ، وحين تُسلِّم لله وترضى بقضائه يرفعه عنك ، أو يُبيِّن لك وَجْه الخير فيه .

إذن : عليك أنْ تحترم القدر وترضى به ؛ لأنه من ربك الخالق الحكيم ، ولا يرفع قضاء الله عن الخَلْق حتى يرضُوا به ، وكثيراً ما نرى اعتراض الناس على قضاء الله ، خاصة عند موت الطفل الصغير ، فنراهم يُكثِرون عليه البكاء والعويل ، يقول أحدهم : إنه لم يتمتع بشبابه.

ونعجب من مثل هذه الجهالات : أيّ شباب ؟ وأيّة متعة هذه؟ وقد فارق فى صِغَره دنيا باطلة زائلة ، ومتعة موقوتة إلى دار باقية ومتعة دائمة؟ كيف وقد فارق العيش مع المخلوق ، وذهب إلى رحاب الخالق سبحانه ؟

إنه فى نعيم ، لو عرفتَه لتمنيتَ أنْ تكونَ مكانه ، ويكفى أن هؤلاء الأطفال لا يُسألون ولا يُحاسبون ، وليس لهم مسكن خاص فى الجنة ؛ لأنهم طلقاء فيها ، يمرحون كما يشاؤون ، لذلك يُسمَّوْن «دعاميص(١) الجنة(٢)».

لذلك ، كان من الغباء إذا مات لدينَا طفل أو غلام صغير يشتد الحزن عليه ، وننعى طفولته التى ضاعت ، وشبابه الذى لم يتمتع به ، ونحن لا ندرى ما أُعِدَّ له من النعيم ، لا ندرى أن مَنْ أُخِذ من أولادنا قبل البلوغ لا

(١) الدعاميص : جمع دعموص، وهو الدخّال فى الأمور . أى : أنهم سياحون فى الجنة دخّالون فى منازلهم ، لا يُمنعون من موضع .[لسان العرب ـ مادة : دعمص] .

(٢) عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : إنه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله ﷺ بحديث تُطيِّب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : نعم، صغارهم دعاميص الجنة ، يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بثوبه ، كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا ، فلا يتناهى حتى يدخله الله وأباه الجنة» أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٣٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٥١٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

يُحدَّد له مسكن فى الجنة ، لأنها جميعاً له ، يجرى فيها كما يشاء ، ويجلس أيْن يحب ، يجلس عند الأنبياء ، وعند الصحابة ، لا يعترضه أحد .

لذلك ، نقول لمن فقد عزيزاً عليه ، كالمرأة التى فقدت وحيدها مثلاً : إنْ كان الفقيد حبيباً وغالياً فبيعوه غالياً وادخلوا به الجنة ، ذلك حين تصبرون على فَقْده وتحتسبونه عند الله ، وإن كنتم خسرتم به الدنيا فلا تخسروا به الآخرة ، فإنْ لطمْنا الخدود وشققنا الجيوب واعترضنا على قدر الله فيه ، فقد خسرنا به الدنيا والآخرة.

والصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء مرتبة من مراتب الإيمان ، ومرحلة من مراحل اليقين فى نفس المؤمن ، وهى بداية وعتبة يتلوها مراحل أخرى ومراقٍ حسب قوة الإيمان.

ويصف الحق سبحانه هذا الابتلاء لإبراهيم عليه السلام أنه البلاء المبين ، فيقول:

﴿ إن هذا لهو البلؤا آلمبين (١٠٦) وفديناه بذبح عظيم (١٠٧)﴾ [الصافات]

فبعد أنْ رضى كل من سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل ، وسلَّما أمرهما لله تعالى ، وامتثلا للأمر بالقضاء ، رفع الله برحمته هذا القضاء ؛ لذلك يصف الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذا البلاء وتكرُّمه بالفداء.

وهكذا لم يكُنْ جزاء الصبر على القضاء لسيدنا إبراهيم عليه السلام افتداء إسماعيل بذبح عظيم فقط ، بل وزيادة على ذلك يسوق له المولى ـ عز وجل ـ البُشْرى بمزيد من العطاء ، فيقول :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ {الصافات}

أى: أنه لم يرزقه بولد ثَانٍ فقط ، بل بولد يكون نبياً وصالحاً ، وتأتى زيادة أخرى فى العطاء الربانى لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، فيقول سبحانه وتعالى :﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) ﴾ {الأنبياء}

هكذا يتجلَّى عطاء المولى سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ فلا يعطيه الولد الذى يحفظ ذِكْره فقط ، بل يعطيه الولد الذى يحفظ أمانة الدعوة أيضاً ، وكلٌّ ذلك نافلة من الله .

أى : عطاء كريم زائد وفضل كبير لأبى الأنبياء.

﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾

{البقرة}

فكلنا نعيش برحمات الله ، حتى الكافر يعيش على الأرض برحمة الله ويأخذ أسباب حياته برحمة الله ، والنِّعَم والخيرات التى يعيش عليها تأتيه بسبب رحمة الله ، والمؤمن يأخذ نِعَم الدنيا برحمة الله ، ويزيد الله له بالبركة والاطمئنان ، والاطمئنان نعمة كبرى ، فَمَنْ يعِشْ فى هذه الحياة وهو مطمئن إلى غاية أفضل من هذه الحياة ، فهذا لَوْنٌ عظيم من الاطمئنان.

فالصلاة من الله عطاء الرحمة والبركة.

والصلاة من الملائكة استغفار.

والصلاة من المؤمنين دعاء